

# الأكاديمية الإسلامية المفتوحة

## الدورة العلمية الثالثة

### مقاصد الشريعة (1)

د. عبد الله الوصيف

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين،  
سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله ومن سار عن نهجه إلى يوم الدين.  
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كما بودي أرحب بالمشايخ: الدكتور الشيخ حسّان، والدكتور الزهراني؛  
كان بودي أن تكون هذه الجلسة مسامرة، ولكني لا تسعني كلمات الشكر  
للمشايخ، لأن هذه الكلمات مهما كانت لا تكفي التعبير عن حضورهم.

.....

مفهوم الثقافة باعتبار اللغة العربية، وورد بعض المشتقات في العريية لمعاني  
الكلمة، منها: ما ورد في القرآن بمعنى اللحاق ﴿إِنْ يَتَّقُوا كُمْ يَكُونُوا لَكُمْ  
أَعْدَاءً﴾ [المتحنة: 2].

.....

التي تتصف بصفتي: الثبات، والانفتاح.  
وتتسع هذه الثقافة الإسلامية لتستوعب الإنسانية جمعاء، متى أمكن تحقيق  
الفهم الواضح الجلي، وتطبيقه السليم السوي لأسس ومصادر الوحي الصحيح  
لثقافة الإسلامية عن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وما استُمدَّ منهما من  
أحكام وحكم وفق المناهج العلمية السليمة، وبدون هذا الفهم الواضح الجلي  
والتطبيق السليم السوي لا يمكن أن تتحقق الثقافة على الوجه الأمثل الجامع

المانع، وأن تكون لها المصادقية المقنعة التي أمر بها الإسلام، وعرفها التاريخ لقرون طوال، ونحن نعرف كيف سادت الثقافة الإسلامية وانتفع بها الناس في كثير من القارات الأرضية شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً.

أجل، لقد جاء الإسلام بدعوة عامة لكل البشرية، لا تخص أهل مكة ولا أهل الجزيرة العربية كما يزعم بعض المستشرقين، ولا تخص زماناً ولا مكاناً محدداً، فهي دعوة عالمية كونية بحق، خالدة في أحكامها وحكمها وآدابها وقيمتها.

قال محمد إقبال -رحمه الله: "زمرم فينا، غير أنه من يعرفنا كيف نشرب زمزم"، إشارة إلى كيف نعرف السنن الكونية ذات الأبعاد العالمية في الثقافة الإسلامية كما عرفها أسلافنا من قبل، حتى ينتفع الناس في الحال وفي المستقبل فيها.

فنحن إذن نفتقر إلى جهد علمي دعوي جماهي نيرٍ واعٍ يؤدي إلى التقدم وإلى الرقي، ويكشف عن مفهوم العالمية، ويكشف عن مدى صلاحيتها للبشرية في كل زمان وفي كل مكان.

قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ \* لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير 28، 29]، وقال تعالى في سورة القلم: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ \* وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [القلم 51، 52]، وجاء في سورة سبأ قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: 28]، وقال في سورة الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: 1]، وفي سورة الأنبياء جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وفي سورة يوسف ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ \* وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف 103، 104]، وجاء في سورة الأنعام قوله تعالى:

﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]، وقال تعالى في نفس السورة -سورة الأنعام: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 90].

وهذه الآيات كلها مكيّة مما يدل على أن عالمية الرسالة قد تقررت تقررت منذ نزول القرآن، وفي العهد المكي الذي تعرض فيه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته إلى الأذى الشديد من أهل مكة الذين كان أغلبهم يعارضون الرسالة حتى لو خُصّوا هم بها دون غيرهم.

ولم يتزل بالمدينة المنورة سوى آية واحدة من سورة الأحزاب، هي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40]، وهذه الآية تصرح بختم النبوة لكل أهل جميعاً، وسيظل كتاب الله وسنة رسوله الدستور الأشمل والأعم للناس كافة لمن شاء منهم أن يستقيم.

هكذا نرى أن مفهوم العالمية والكونية بكل معانيها من الشمول والعموم قد تقررت في الرسالة الإسلامية، وتقرر فيها مبدأ الحرية أيضاً، ومبدأ رفض الإكراه وحق الاختيار، ومبدأ تحمل المسؤولية ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: 38]، وهكذا أسفر الصبح لذي عيين.

وبحسب ما تقدم يُمكننا تعريف القافة الإسلامية بأنها: المعرفة الجامعة لأصول النمظم العقديّة والتشريعية، والقيم الخلقية التي جاء بها الإسلام، وعمل الرسول -صلى الله عليه وسلم- على نشرها وتجسيمها، وتابعه الصحابة من بعده، وأظهرها ودرج الخلف من بعدهم عليها وخاصة كبار الأئمة والمجاهدين ممن توافرت فيهم شروط الاجتهاد؛ عملوا على تعميق وإبراز المفاهيم الكلية الكبرى، لتكون علامات مضيئة على طريق السالكين من أبناء الأمة جيلاً بعد جيل إلى أيام

الناس هذه، أي عبر مسيرة الأمة الإسلامية كما نرى في عمل الجامع الإسلامية اليوم والجامعات الإسلامية المتكاملة اليوم.

ناهيك أن الملة الإسلامية رُغم سعة ميادين حياتها وعمرها الطويل عبر الأمكنة والأزمنة فقد استطاعت أن تجمع وتوحد بين مختلف الأجناس في مختلف الأصقاع؛ أليس في هذا ردُّ على مَنْ يدعي أن العلمية في الثقافة للعوالم الغربية؟! أليس في هذا ردُّ على الذين يستنسخون الثقافة الأجنبية من أبنائنا ويُسقطونها علينا إسقاطاً لتشغيرها ولتحويل مجرى تاريخنا الذي عرفناه طويلاً خاصة في تونس منذ نحو خمس وخمسين سنة والأمة لولا إصابتها ولولا الدور الكبير الذي رَسَّخه الصحابة هنا في هذه الربوع في القيروان وفي بلاد أخرى، ثم في جامع الزيتونة؛ لولا ذلك لانسلخت الأمة من هويتها ودينها.

إذن ثقافتنا ما هي مقوماتها؟ الثقافة الإسلامية والثقافة الوطنية ما هي مقومات الثقافة الوطنية؟

مقومات الثقافة الوطنية:

أولاً: ما ورد في الإسلام في أصول الإسلام من الثوابت، ثم ما استنبطه كبار المجتهدين من الأحكام والحكم من أجل رفض الخلاف والتناقض بين الأمم، لأن غياب المعرفة العلمية بين الشباب ينتج عنه التناقضات، وينتج عنه المعارضات، وينتج عنه التضارب، وهذا ما نراه -للأسف- في هذه الأيام بين بعض الشباب -هداهم الله- وهم مخلصون صادقون في أحاسيسهم، لأنه يسرعون في رفض بعضهم البعض، وفي حين أن الإسلام يدعوهم إلى أن يكونوا أمة واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ [الأنبياء: 92].

فكيف لا يصلي الشباب معاً؟! فكيف نلتقي في الحفلات أو في الاجتماعات الخارجة تكون، أو في المقار أو في المناسبات، ثم يفترقون في المساجد؟! هذا لعمرى شيء فظيع!

أنا أوصي الشباب هنا بأن يتعلموا.

أنا اكتفيت بالمحاضرة، لأن المحاضرة ستطول أكثر من ساعة، وأعرف أن هناك مَنْ ينتظر غيري، كما استمعت منذ لحظة كلمة "زامر الحيّ لا يُطرب"، وإن كان هذا المثل خارج عن ثقافتنا وليس من الثقافة الإسلامية للأسف، لكنه كاللغة مفروضة علينا.

ألا تعرفون أننا الآن لغتنا معظمها مشوهًا باللغة الفرنسية؟ وأن واجهات المحلات مشوهة؟ وأن كثير من العقول، وحتى الجوال البسيط ترسل رسالة تكتبها بالأحرف الأجنبية؟!

من أين هذا يا أيها الإخوة؟

هو من تأثير الثقافة الأجنبية التي تأتينا بواسطة الاستشراق والاستعمار والتنصير، وهي التي تؤثر في تغريق الصفوف، وتعطل عوامل الوحدة، وتخبط العزائم وتفرق الصفوف.

علينا -أيها الإخوة- أن نلتفت إلى الثقافة الإسلامية، وأننا لن نصل إلى الثقافة الإسلامية ما لم نتعلم العلوم الإسلامية خاصة القرين الكريم وعلومه، والسنة والنبوية وعلومها، وما استمد منهما من العلوم والمعارف الأخرى كي نصعد إلى الوعي الذي يقودنا إلى محبة بعضنا بعضًا، ألا يدعونا الإسلام إلى المحبة فيما بيننا؛ بل إلى محبة الآخرين؟!

الإسلام يدعونا إلى الانفتاح على غيرنا، إنما ينهانا الله - سبحانه وتعالى - عن الذين اعتدوا علينا، ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: 8]، ويأتي النهي بعد ذلك عن الذين قاتلونا في الدين وحاربونا، أو حاربونا في اقتصادنا، أو عطلوا العمال وصرفونا عن النهضة بفوز هذه الثورة المباركة التي هي ثورة الشباب بالدرجة الأولى، يعني الشيوخ والشباب، لا يجوز الاحتكار هنا، ولكن

الشباب لأن لديهم مستقبل، لأن تهمهم كثيراً وتهمنا معهم، فهم أبناؤنا وبناتنا، فعلينا إذن أن نلتفت إلى معرفة الثقافة الإسلامية من حيث هي إسلامية.

لذلك أنا الآن سأفسح المجال بحسب ما جاءني من التنبيه من الإخوة، لا تروهم، ولكني أراه، يقول: إن الشاب والشيخ ينتظرون تدخلا من طرف بعض المشايخ الضيوف الذين نرحب بهم كثيراً ونحبهم كثيراً، وجاؤوا إلى مساعدتنا، وإلى أن تسمعوا منهم أكثر -بارك الله فيكم- وأؤجل محاضرتي إلى حصة أخرى، لأنها ستطلب وقتاً، وهي أيضاً خاصة ببعض المتعلمين من الجامعيين ومن شاكلهم.

اعانكم الله ووفقكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.